

الأسرة السعيدة

بقلم الكاتبة

زينب محمد حسين

لم تزل أغاب أسرانا المصرية المثقفة رغم تقدمها الظاهر ورقي مستواها تفتقر إلى الإلمام ببعض النقط الجوهرية الحساسة التي تجعل سعادتها دائمة بدوام وجودها .
فكثيرا ما نسمع أو نقرأ عن سيدات قد فقدن بمرور الزمن محبة أزواجهن لمن ، وإلحاحهن في التساؤل عما يفعلنه لاستعادة سعادتهن الزائلة . أو عن رجال يشكون نفس الشكوى .
وقد نرى زوجين في مستهل حياتهما الزوجية وفي غمرة سعادتهما قد ركبهما الوهم ، وتسلط عليهما شيطان الوسواس ، فهما في خوف دائم وقلق مستمر ، يترقعان الشقاء .
فيكون هذا الشك نفسه عاملا قويا في تقويض سعادتهما وفشل شركتهما من حيث لا يدريان .

ومن تلك الأسباب وغيرها وجب علينا أن نبحث في علة تلك العوامل التي تسبب فشل معظم حالات الزواج الموفق كي نحقق وجود الأسرة السعيدة التي حى ألزم ما تكون للأهم .
ورغم كل تلك العقبات التي يتوهمها المرء في الحصول على السعادة الزوجية ، فالسعادة قد تكون في متناول كل من يريد ، إذا أمكنه أن يعرف حقائقها ومسبباتها ، فيلم بتلك المسببات ويعتمد عما يشوه تلك الحقائق .

فأول ما يجب أن تأخذ به الأسرة السعيدة هو الهدوء المتزلى . ولو أننا لمنا ما للهدوء المتزلى من أثر فعال في حياة الأسرة ، لأدركنا قيمته الجوهرية بالنسبة إليها .

فملا شك فيه أن لجو الهادئ سحرا عجيبا يؤثر في النفس الحساسة ويبعث إليها الراحة والاطمئنان ، ويجعل صاحبها رقيقا ميالا إلى الدعة والمساملة حتى وإن كان خشن الطبع عصبى المزاج .

وقد أجمع علماء النفس على أن الجو الهادئ والموسيقى هما أعظم علاج لذوى الأعصاب النائرة ، وهذه نظرية واضحة لا تحتاج إلى ما يشبهها . فالأعصاب النائرة إما أن تكون لشخص مريض النفس أو مريض الجسد ، فريض النفس قد ورث حالته النفسية من الوسط الذي نشأ في محيطه ، فإذا كان قد شب في وسط صاحب مليء بالضوضاء ، أو بين

أبوين مبالغين للتراخ والنورات المنزلية فهو ولا شك متخلق بأخلاقهما بحكم احتكاكه الدائم بهما ، ومحاكاته لهما إبان طفولته ، فتضطرب أعصابه بحكم تلك المؤثرات التربوية . وإذا كان قد نشأ في بيت مليء بالمأسى والأحزان ، فهو دائما منقبض النفس حزين الفؤاد . ولا حاجة بنا إلى القول بأن مثل هذا الشخص في أشد حاجة إلى الجواهر الهادئة الذي يتمثل في محيط الأسرة ، وكذلك في رؤية المناظر الطبيعية الساحرة وسماع الموسيقى الهادئة ، لأن أي صخب من شأنه أن يحطم ما بقي من قوة أعصابه المضطربة .

وكذلك مريض الجسد الذي يشكو مرضا داخليا كضعف القلب وفقر الدم واضطراب المعدة ، وبنوع خاص ذوو الرئة الذين يجعلهم المرض يتنفسون بضيق . فتثيرهم أبسط الحركات وتزيد من علقهم ، فيؤثر المرض الجسدي على النفس وتتاثر بذلك الأعصاب . ومن ذلك يتبين لنا ما للهدوء المنزلي من عظيم الفائدة في جو الأسرة .

وليس الهدوء المنزلي معناه أن يسود المنزل سكون مخيف فيبدو رهيبا كالبور ، ولكنه تلك السكينة الرقيقة البعيدة عن كل ما يثير الأعصاب . وتلك اليقظة الحاملة إلى تشمل جو المنزل فتكاد نامسها في انسجام ألوان الأثاث وحسن تنسيقه ، وفي أناقة الزوجة ورفعة أحاديثها وتمازج ألوان ثيابها ، وفي هدوء الأطفال ووداعتهم ونظافة الخدم ونشاطهم وفي روح التآلف والترابط بين جميع أفراد الأسرة والتعاون بينهم .

ولا يمكن أن يتوافر ذلك في المنزل إلا إذا كانت ربه من ذوات الذوق الفني فيمكنها أن تخلع على منزلها من ذوقها أجمل الورود وأقربها إلى إعجاب زوجها ومحبتها ، فيبدو منزلها مزدهرا في هدوء ، أنيقا في رقة حتى وإن كان متواضعا قليل الأثاث .

ويمكننا أن ندرك ما للانزله الهادئ الأنيس من أثر في النفس إذا ما سألتنا أنفسنا عن السر في شعورنا بالارتياح والاطمئنان إذا دخلنا منزلا ، ونفورنا واشمئزازنا من منزل آخر ولو كان ذلك الأخير قد حوى من صنوف الترف والبذخ ألوانا .

إن هذا التفاوت نفسه خير برهان على شدة حاجتنا إلى الهدوء المنزلي الذي يخلق الذوق في البيت السعيد .

وإن كنا قد تكلمنا عن الهدوء المنزلي بكل هذا الإسهاب فيجب ألا نغفل عن ذكر عامل آخر يمانئه من حيث الأهمية وهو كيفية استغلال أوقات الفراغ .

فنحن حتى الآن لم نتجح تقريبا في استغلال أوقات فراغنا ، مع أن الغربيين قد وصلوا في ذلك إلى أبعد حدود النجاح . فهم يقصدون يوم (الويك إند) ويتهنئون به بهفة وشوق

حتى إذا ما حل ذلك اليوم خرجوا جميعا لاستقباله ، فيخرج بعضهم إلى الريف حيث الطبيعة في أبهى حللها ، حاملين ماخف حمله من مأكولات وآلات موسيقية ، ويمضونه يوما جميلا بين مسرح ورقص وغناء .. ملتين عن كواهلهم أعباء الحياة ومظاهرها الكاذبة ، فيستعيدون بذلك الأمل والنشاط إلى نفوسهم ، فإذا جاء الأسبوع الجديد استقبلوه بروح نشيطة ، ونفس متوثبة ، ووجوه عامرة بالبشر والسعادة .

وايست هذه هي الوسيلة الوحيدة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عندهم ، فهم أيضا يذهبون إلى المسارح ودور الكتب والأندية الرياضية وغيرها من مختلف المسليات التي تجمع إلى جانب اللهو البريء الفائدة العظيمة .

وكثيرا ما يكون لأوقات الفراغ أثر فعال في مستقبل الأفراد أيضا ، فكم من رجال صاروا نوابغ بفضل انكبابهم على تلقى العلم والتحصيل في تلك الأوقات .

ومن عظماء الرجال الذين ارتفعوا إلى المكنة السامية التي نخلهم إياها بفضل استغلال أوقات الفراغ "توم اديسون" مخترع التلفاز . فانه لم يكن قبل أن يحصل على مكانته المعروفة سوى بائع جرائد في النظارات ، ومع ذلك فانه كان يستغل أوقات فراغه ويعكف على آلاته الخبأة في قبو منزله الصغير ، يجري عليها أبحاثه وتجاربه حتى أمكنه أن يقوم بهذا الاختراع العظيم الذي أسعد العالم أجمع .

فأوقات الفراغ إذن هي خير فرصة يجب أن نستغلها لنفادتنا والترويح عن أجسادنا وأعصابنا المتعبة ، وأيضا لزيادة ثقافتنا وتنمية مواهبنا ، تلك المواهب التي تعيننا دائما على اختيار طريقنا الصحيح في الحياة . والزوج والزوجة في ذلك سيان لأن الزوجة أيضا لا يجوز أن تضع حدا لثقافتها بمجرد زواجها ، بل قد يكون الزواج من أكبر البواعث التي تدفعها إلى استعادة ثقافتها لأنها قد أصبحت تشارك في إعداد المستقبل لا لأسرتها فقط ، بل للوطن بأسره . وهذه المهمة تتطلب منها مجهودا يحتاج إلى معرفة وثقافة أوسع مما كانت عليه قبل الزواج ، حتى يمكنها أن تسير التطور العالمي ، وتدرك مدى تقدم الأمم ، وحتى يجد فيها زوجها شريكا محتكما يتبادل وإياه أوجه الرأي فيما يعين لهما من أمور .

كذلك يمكنها أن تستغل أوقات فراغها في تعلم الموسيقى لما لها من أثر في تهذيب الشعور والسمو بالنفوس ولما تخلقه في جو المنزل من سحر مقرون بالسرور ، كما تتعلم التطريز والحياطة وتلم بتدبير المنزل إلماما حقيقيا غير مكتفية بمجرد الاشراف على الخدم ، فتكون بذلك قد أضافت إلى ثقافة فناة المدارس معرفة سيدات المنازل ، تلك المعرفة التي لا بد لكل سيدة

تريد المحافظة على سعادتها من الأخذ بها ، فالزوجة بانتقالها إلى منزل الزوجية لم تعد بعد تلك الفتاة المدللة التي تنتظر دائما رعاية أبويها ... بل هي الآن ربة منزل ، وربة المنزل لا بد أن تكون كاملة في معرفتها ، كاملة في قوة أخلاقها ، كاملة في كل ما يتطلبه منها منزلها من رعاية ومسؤوليات .

ومن العوامل المهمة أيضا في سعادة الأسرة تبادل الاخلاص بين الزوجين وعدم الالتجاء إلى رذيلة الكذب .

فالكذب ولو كان لغرض نافع كثيرا ما يؤدي إلى خلق المشاكل ، وانعدام الثقة في جو الأسرة ، ومتى انعدمت الثقة في جو الأسرة لا يمكن أن تسير سفينتها بسلام مهما حاول الزوجان ذلك .

وعلى ذلك يجب أن تكون حياتهما كصفحة نقية في كتاب مشترك ، فينهما دائما في جو من الصراحة والإخلاص يجعل كلاهما رضى النفس مرتاح الضمير فتتحقق لهما السعادة التامة .

ولا يفوتني قبل أن أنتهى من هذا البحث أن أعرض لفوائد الاقتصاد وأثره في سعادة الأسرة ، فالأسرة الاقتصادية يمكنها أن تحيا حياة منظمة بعيدة عن الارتباك المالية وما يتبعها . ولو أن كل أسرة استطاعت أن تنظم ماليتها وترسم ميزانياتها على أساس إيرادها ، ووازنت بين الإيراد والتفقات ، وقدرت حاجتها الاستهلاكية وأعدت لكل شيء عدته ، لما طرق بابها يوما ضيق ولا عوز .

وكم تحسن ربة البيت صنعا لو ادخرت قدرا من النقود كل شهر لطفلها الصغير لتتفع به في الإنفاق عليه في مختلف مراحل التعليم . وإذا كبر وأتم تعليمه ولم تكن هناك حاجة إلى من ذلك المبلغ أمكنه أن يستعين به في شق طريقه إلى الحياة العملية إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك .

ويبقى أن الأسر لا تتم سعادتها إلا بوجود السيدة المدبرة العاقلة التي تتوقع كل شيء وتعد العدة لمواجهة أحداث الزمان ، وهذا شيء ضرورى في حياة الأسرة السعيدة .

وكذلك يمكن لربة البيت أن تفتصد شيئا من المال لتجديد أثاث بيتها حتى يبدو دائما في حلة جديدة زاهية فيدخل البهجة على قلوب كل من يراه .

وأختم هذا المقال بنصيحة هامة لكل من الزوجين اللذين ينشدان السعادة الدائمة في حياتهما ، وهى أن يحترم كل منهما عائلة الآخر ، فيعتبرا أنفسهما أسرة واحدة يربطهما رباط مقدس هو أقوى من رباط القرابة . فلا يدعان محبتهم تشوهها الشكوك وتعصف بها

الأوهام خصوصاً من جهة (الحماة) التي يكاد يعتبرها الكثيرون آفة اجتماعية يجب القضاء عليها... ولست أشك - لحظة في أن تلك الاعتقادات الخاطئة ليست إلا مفتريات تولدها تلك الدعاية السيئة التي يلجأ إليها بعض الناس في أقوالهم ، وتتخذها المجلات مادة للنكاح والتهريج . ومع أنها فكاحة رخيصة نافهة إلا أنها في الواقع من الخطورة بحيث لا يصح أن نستهن بها ... إذ أنها تعلق في مخيلة النشء ، حتى إذا ماشبوا وصاروا على أهبة الزواج تمثلت أمامهم تلك الصورة القديمة وصاروا يرون في حماهم رسول الشر في المنزل حتى وإن كانت كل الحقائق تكذب ذلك .

ومن هذا وجب على الأسرة الحديثة بصفقتها نواة الجيل أن تنظر إلى مثل هذه الأمور بالعين المجردة البعيدة عن التشويه والمغالطات ، وإلا فما فائدة المعرفة إن لم تكن لسمو النفس وتنقيتها مما علق بها من أدران الجهل الذي كثيراً ما سبب بشاكلة الشقاء والفشل ؟

هذا قليل من كثير مما يجب على الأسرة أن تعمل به . ولعل أكون في هذا المقال قد ماهمت بتقديم بعض النصائح الزوجية لكل من يرغب في الحياة المستقرة الموفقة التي لا بد وأن يكتشف حقائقها الكثيرة كل من يحاول إسعاد نفسه وإسعاد أسرته .

زينب محمد حسين

من رآه سبب أو هاله عجب	فلى ثمانون حولاً لا أرى عجباً
الدهر كالدهر والأيام واحدة	والناس كالناس والدنيا لمن غلبا
	أبو العلاء المعري